الأهمية التربوية لاستعمال التقانات المعلوماتية في الدول النامية

جورج ن. نحاس
١٩٩٩

١ - المدخل: الكلمات المفتاح

بادء ذي بدء أود أن أتوقف عند ثلاث كلمات مفتاح في عنوان مداخلتي:

الأهمية التربوية لاستعمال التقانات المعلوماتية في الدول النامية

ألا وهي التربية، والتقانة والدول النامية.

أ - التربية

يُعْتَبَر التطوير التربوي اليوم جزءًا لا يتجزأ من العملية الإنمائية وقد أضحى من الأولويات بالنسبة للعديد من الدول في العالم. من ناحية أخرى، تكاثرت مستجدات العلوم التربوية في النصف الثاني من هذا القرن، مستجدات تعود أهميتها إلى جذرية طروحاتها وليس فقط إلى عددها. لكن، تعترض التغييرَ التربويَ صعوباتٌ متنوعة، أهمُها:

i - عامل الخوف. فالمطلوب من المسؤول التربوي أن يعيد النظر بأمور إعتادها لسنين، فيشكل هذا التمسك بالقديم شيئًا من الدفاع عن النفس.

ii - الركون إلى المألوف. فكثيرًا ما يرتاح المرَبّون لوضع يُعَمِّم الخطأ على حساب حقيقة تربوية عليهم أن يرتجوها كمسؤولين عن المتَعَلِّمين وأمامهم.

iii - الواقع الاجرائي وما يتطلبه من تحصيل وعمل وصعوبة.

ب - التقانات المعلوماتية

من ناحية أخرى، تبدَّل الكلام على التقانة وتحولت من كونها استعمال لآلة أو لمجموعة آلات لتصبح تثميرًا في مجاليْ تحليلِ المعلومة والمساندةِ في اتخاذ القرارات. وربما كان هذا الفرق الأساسي بين الآلة الكاتبة أو الحاسبة والحاسوب. زد على ذلك، أن التقانة الحديثة زادت بعدًا جديدًا، ألا وهو عامل السرعة في الاتصال ونقل المعلومات، ناهيك عن التنوعِ الهائلِ فيها. وهذا كله في فترة زمنية لا تتعدى عمليًا الربع قرن.

ج - البلاد النامية

نأتي أخيرًا إلى أفهوم "البلاد النامية". ما هي المرجعية التي تجعل من بلد ما، بلدًا ناميًا؟ في اعتقادي أن محتوى هذا التعبير يحمل في طياته مدلولاً اقتصاديًا من جهة ومدلولاً إناسيًا من جهة ثانية. يطال المدلول الاقتصادي أوجهًا عديدة في الحياة، منها لا شك التربية وتقاناتها وهو قابل لكثير من التعميم بالمطلق. أما المدلول الإناسي، فهو خاص بكل بلد ولست أدري إذا كان التعميم ممكنًا في هذه الحال. ولأن التربية تُبْنى أيضًا وأساسًا، على رؤية إناسية للأمم،

فلا بد من التوقف بجرأة وواقعية أمام تقاطع هذين الوجهين والعمل على تكاملهما بالحفاظ على خصوصية الأمم وعلى طموحاتها العلمية والثقافية.

بكلمة أخرى، أليس لنا أن نرفض المقولة التي تجعل من بلد في طور النمو الاقتصادي، بلدًا في طور النمو الثقافي؟ أليس لنا أن نعيد النظر في المسعى الدولي الذي يسعى إلى التعميم فالتسطيح معتبرًا الطاقة الاقتصادية مرجعًا للحكم على النمو الانساني في بلد ما؟ أليس لنا أن نبرهن أن طاقة بلد مدعو ناميًا تتخطى علىصعيد الانساني بعض النماذج المعلّبة في أذهان الخبراء؟

هل ثقافة العولمة ثقافة إلغاء أم ثقافة إغناء؟ هنا تكمن إشكالية دور التقانة بالتربية.

٢ - الخلفية الحضارية

لا أقتصر طرحي على بعض الشكليات التربوية لسببين رئيسيين. فلا التربية مجموعة تقنيات ووسائل إيضاح كما يخيّل للبعض (ومن المؤسف اليوم ان التعامل مع الحاسوب هو كذلك). ولا يقاس نمو أي بلد في العالم بنسبة استعماله للتقانة الحديثة (ويشكل الحاسوب ومتفرغاته اليوم أهم مظاهر هذه التقانة). فنحن أمام تحوُّل حضاري يُصَنِّف الدول والجماعات تسنده في ذلك ترسانة إعلامية كونية تدعوك باستمرار إلى الاستلاب والتغرُّب. لذلك كان لا بد من التوقف قليلاً عند خلفية الحداثة هذه.

٢ - ١ أفهوم الحضارة

يأتي عادة الكلام على كل ما يعود إلى البلاد النامية في سياق يجعل من الحضارة المرجع الأساس، دونما الشعور بحاجة إلى تحديد مفهوم الحضارة. لكن الحضارة كأفهوم (concept) هي بالواقع بحاجة إلى تحديد. فلا يمكن مثلاً اعتبار ثقافة ما، في بلد ما، وفي ظروف تاريخية ما، هي المرجع الحضاري الكوني. لذلك تواجه البلاد النامية مشكلة كبرى في خطاب عالمي يماهي بين الحضارة والثقافات المحلية ويستند في طرحه هذا إلى الحداثة والتطور وتحضير المستقبل.

لذلك، فمن الضرورة بمكان أن نسعى لتحديد الحداثة وقراءة ضياغة الحضارة المستقبلية على ضوئها، آخذين بعين الاعتبار غنى التعدد الثقافي في هذه السيرورة.

٢ - ٢ ماهية الحداثة

يتم تحديد مفهوم الحداثة بالنسبة إلى ما هو قديم نسبيًا، لذلك فهو يتخذ بُعْدًا ديناميًا سرعان ما يرتبط بعملية تغيرية ما. ومن مفاعيل هذه الدينامية أن تطال

تدريجيًا كل جوانب الحياة أينما ابتدأت أصلاً. ترى الدول المسماة نامية نفسها، انطلاقًا من هذه الرؤية، في سباق مع زمن تجهله لأنه يتخذ كافة مرجعياته من خارجها. لكن الحقيقة أن الحداثة ليست حالة طارئة إنما هي من خصوصيات الإبداع الإنساني الذي، في توقه إلى المطلق، يفتش دومًا عن نفسه حتى تأتي الصورة المتعامل فيها عن الإنسان أكثر تلاؤمًا مع رؤية غير معلنة عنه. لذلك يمكن لهذه الدول أن تصيغ الحداثة التي تناسب خصوصيتها فتبعدها عن التبعية الحضارية التي تُجَرُّ إليها اليوم.

٢ ـ ٣معطيات نهاية القرن

لن أدخل هنا في تغطية شاملة لما عرفه القرن العشرون من تبدلات. لكن الأكيد أن ما أتت به الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، وما تمخضت عنه الثورة الصناعية طيلة القرن التاسع عشر، أدّى إلى جملة من التغيرات منذ مطلع القرن طالت:السياسة،و الفن، والأدب، وعالم الفكر، والعلاقات بين الأمم. فأدّى النصف الأول من القرن إلى زعزعة جملة من الموروثات والمطلقات. إلاّ أنه كان لهذا الأمر ايجابية أكيدة وهي استعادة الإنسان لدوره في التحليل والنقد والقرار الحر، مما خلق جوًا من الاستمرارية في عملية الحداثة وضعت كل جديد على المحك أسوة بالموروث.

وتميز النصف الثاني من القرن بتراجع في بعض الطروحات ذات الطابع العنفي ليحل مكانها تيار تحرري قائم على الاحترام المتبادل وعلى الحرية وعلى التساوي في الحقوق والواجبات. فاستقلت الكثير من الدول التي كانت خاضعة للاستعمار، وظهرت شرائع تدعو العالم لتحمل مسؤوليته تجاه الإنسان والطفل والتعليم إلخ... وظهرت المنظمات العالمية التي من شأنها دعم المستضعف والمظلوم والفقير (بقدر الامكان). كما قامت مؤسسات للحفاظ على الإرث الحضاري الإنساني أينما وجد وكيف ما كان.

لكن وفي الوقت عينه، أدّى تطور الاقتصاد العالمي إلى جنوح الدول حول نظام اقتصادي جائر، يماهي بين قيمة الإنسان وقدرته المالية، جاعلاً من سلطة المال سلطة مطلقة تتحكم بالسياسة وبمصير الدول وبحياة الإنسان. فينتهي القرن على تناقض عجيب: تطور فكري هو لصالح الإنسان وتطور اقتصادي يقهر الإنسان.

٣ ـ <u>مضامين الإشكالية المطروحة وأهميتها</u>

٣ ـ ١ الثورة التربوية

في نهاية قرن تقارعت فيه الإيديولوجيات على اختلافها، نتساءل اليوم عن الإنسان كقيمة بحد ذاته: إنسان لا تسحقه الجماعة التي ينتمي إليها ولا

يسحقه المال المؤَلَّه في أنظومة الاقتصاد المعولم. والعالم، من خلال شرائع مختلفة، يطرح من جديد إشكالية "الشخص" (the person) كقيمة متفاعلة مع مجتمعها وليس كحصيلة مجتمعية أو كقوة مالية.

فبينما إنتهى القرن التاسع عشر على "علموية" (SCIENTISME) تؤلّه العلم على حساب الإنسان، ينتهي القرن العشرون ينتهي على "أنسنة" للطرح تعيد النظر في كل هذه المعطيات. لذلك لا يقتصر الكلام على التنمية اليوم على الوجه الاقتصادي كما في الخمسينيات، فالكل يعي أن التنمية هي أساسًا تنمية العامل البشري ليقوم بتحمل مسؤولياته في وطنه بعيدًا عن أية هيمنة خارجية واستعمار فكري أو حضاري مبطَّن.

هناك أيضًا تحول فلسفي يقوم على إعادة اكتشاف الانسان-الشخص كوحدة متكاملة. فيركز علم النفس، كما الطب، كما التربية على التناغم القائم فيه وعلى النماء المتوازن بين مقوماته المختلفة من عاطفية وعقلية وحسحركية، مما يعيد النظر في أسس التعاطي مع الإنسان في حاضره كما في النظر إلى مستقبله.

هذا كله سيؤدي حتمًا إلى ثورة في الرؤية التربوية إلى المناهج المدرسية، فيقوم التعاطي معها كسبل لنماء شخص المتعلّم ضمن إطار المجتمع الأرحب بالاعتماد على تداخل الاختصاصات (cross disciplinarity) وتكاملها. وهذا يعني أن التغيير الناتج عن هذا التحوّل سيطال الحياة التربوية، ليس فقط في المدرسة كما اعتدنا حتى اليوم، بل على صعيد الأمم والسياسات التربوية فيها. هذا التغيير الجذري في كل ما له علاقة مباشرة بالنماء وبعلاقة الانسان بالمجتمع وبارتباط المجتمعات بعضها ببعض، أدخل المتَعَلّم عهد الشراكة مع المعَلّم ومع البيئة ومع العالم. لذلك تبدلت الأدوار جميعها:

أ - فحرية الانسان مصونة بسبب هذا التكافل العالمي. لكنها مهددة بنفس الوقت بسبب امكانية طغيان فئة من الناس على مصادر المعلومات.

ب - والبيئة ليست فقط الجوار الحسي للإنسان، لكنها أيضًا كل ما يستطيع أن يدخل بتواصل معه انطلاقًا من التقانة الحديثة، فيتفاعل معها ويؤثر فيها أو يتأثر بها، حسب ما اكتسب من قدرات ومؤهلات.

ج - واللغة أخيرًا هي ما يجعل منك حاضرًا في عالم الاتصال والتواصل هذا، فإما أن تصوغ حضارة المستقبل، إما أن تنتظر أن يخطط لك الآخرون مستقبلك الحضاري.

٣ - ٢ الثورة التقنية

لن أدخل هنا في مجال التفصيل التقني، هذا الأمر هو شاغل المؤتمر وفي اعتقادي أن الحاضرين هنا سيوفون الموضوع حقه. لكن لا بد وأن أتوقف على ظاهرة واحدة في هذا المجال ألا وهي ظاهرة السرعة والاتساع. ففي فترة لا

تتعدى السنوات القليلة، انقلبت مفاهيم انتقال الخبر، والحصول على المعلومة وطرق معالجة هذا الكمّ الهائل من المعطيات. هذه الثورة التقنية التي وسَّعت آفاق الإنسان، وأعادت إلى الواجهة أهمية التربية على حسن استعمال الحرية المعطاة له، وضعت كل البلدان في العالم أمام معطى حضاري جديد بالكلية.

أصبح الإنسان على اتصال مباشر بمحيط أوسع بكثير عما كان عليه من قبل والكلام على "القرية الكونية" بات واقعًا حضاريًا لا يمكننا تجاهله. الطالب في أي بلد من بلدان العالم هو، من حيث العلم ومن حيث الانتاجية ومن حيث القدرات العملية، مطروح في سوق عمل عالمية، فلا بد إذًا من أن يتأثر تأهيله المدرسي والجامعي بشكل مباشر.

سيؤدي التغاضي عن أبعاد هذا التحوُّل التربوية إلى الوقوع حتمًا في التبعية لأننا لن نكون مشاركين في صياغة غد العالم وسيدفع أولادنا الثمن غاليًا فيكونوا مواطنين من درجة ثانية في عالم يطمح فيه البعض إلى الهيمنة باستعمالهم المال والسلطة على حساب الإنسان وكرامته. لذلك:

أ - فالآلة التي وضعتها التقانة الحديثة في متناول يدنا، هي سيف ذي حدين، فإما أن تستعبدنا، إما أن نتطوعها لحاجات تنمية بيئاتنا على اختلافها.

ب - والتواصل حتمي، فإما أن نعي دور لغتنا في عالم المستقبل ونجعل منها أداة تواصل شكلاً ومضمونًا وتيسيرًا، وإما سنرزح تحت وطأة المستورد.

ج - والانسان في بلادنا، أمانة في عنق جامعاتنا. فإما أن نخرِّج مبدعين، وإما أن نخرِّج معيدين لما أنتجه غيرنا. التقانة سلَّم إلى الأعلى كما هي سلَّم إلى الأسفل. علينا نحن أن نختار.

٣ - ٣ المنظار العلائقي

يطال هذا التحول عالم "العلوم التربوية" بالتخصيص.بدأ هذا التحوّل يدخل حيّز الوجود مع تطور دراسات المدرسة المعرفية الحديثة وأبحاثها في ما سمي علم النفس النمائي، ومن ثم وبشكل أعمّ، علم النفس المعرفي، وأصبح في عديد من الدول ركيزة أساسية للتأهيل التربوي.

يقوم هذا التحول على أسس ثلاثة:

أ - النماء المتوازن عند المتعلم بين ما هو ادراكي وما هو لغوي وما هو نفسحركي.

ب - أهمية "الفعل" (EN-ACTE) في العملية التعلمية كسابق للتجريد.

ج - استيعاب الأفاهيم عملية أساسية تحصل في اطار "حقول أفهومية" معينة وليس كمجموعة أفاهيم مستقلة.

لذلك كان تداخل المواد ناتجًا حتميًا وليس اصطناعيًا لهذه الرؤية التربوية الجديدة. عمليًا، أصبح الإنسان على اتصال مباشر بمحيط أوسع بكثير عما كان عليه من قبل، وصار في متناوله كمٌ هائلٌ من المعلومات التي لم يكن يحلم بالاطلاع عليها بهذه السرعة وهذه السهولة وهذه الكلفة، كما أعطته التقانات الحديثة إمكانية التدخل في صياغة المعلومة أو الرد عليها أو التعامل المباشر معها. تعوَّد العالم على استعمال الحاسوب (COMPUTER) منذ سنوات وحلت تدريجيًا التقنيات المتعددة الوسائل (MULTIMEDIA) محل التقنيات السمعبصرية (AUDIOVISUEL). لكن ما نشهده اليوم مع دخول شبكة الاتصال العالمية (INTERNET) حيّز الوجود نجد أنفسنا أمام معطيات مغايرة بالكلية، لا تطال الأوجه التقنية فقط بل تتعداها لتصبح جزءًا من العملية الحضارية ككل. فبواسطة هذه الطاقة الاتصالية، أصبحت العولمة من ناحية والتدويل (INTERNATIONALISATION) من ناحية أخرى شأنًا يوميًا، في حياة كل إنسان.

٤ - **<u>مستلزمات النمو التربوي</u>**

أ - الامكانيات التي تقدمها التقانة الحديثة

ب - العلماء المنتشرون في المهاجر

ج -الجهود المشتركة

أخيرًا، في اعتقادي أنه في ظل ما سبق وأوردت، يمكن استخلاص ما يلي:

أ - التسريع التكنولوجي في مجالات الاتصالات وأحدية النمط الاقتصادي يجعلان من العولمة حالة دولية لا رجوع عنها ولا يمكن أن يبقى العالم الآخر بمنأىً عن تأثيرها.

ب - في التحولات الحدثة ايجابيات قصوى بإمكاننا الاستفادة منها لكشف خصوصياتنا الحضارية. جامعاتنا مسؤولة بشكل مباشر عن هذه العملية.

ج - تؤثر التقانة الحديثة على التربية بشكل أخص لأن الجامعات ومراكز الأبحاث في العالم تستعمل شبكة الاتصال العالمية بكثافة فتضع مستجداتها تحت تصرف كل مهتم.

د - تلعب اللغة والثقافة عامة دورًا أساسيًا في مجال ربط التربية بالواقع المعيوش. من المفترض أن تدعم الدول كافة الجهود المحلية الآيلة إلى "توطين" التقانة وتدجينها وفق حاجات المجتمعات المحلية ومواكبة الحداثة.

ه - التنسيق بين الدول العربية وبين الجامعات العربية وبين مراكز الأبحاث العربية، في مجال توحيد المفردات وتيسير تراكيب التعبير العلمي وأساليبه،

ضرورة قصوى ليتوحد الخطاب العربي تجاه العالم. إن لم نفعل ذلك ستكون اللغة الأجنبية هي المُوَّحِدة بيننا، بدل أن يكون العكس هو الصحيح.

هذه الأفكار ممكنة التنفيذ. ملحاحية الموضوع لا تعطينا المجال للتوقف طويلاً عند الأطلال نبكي ما فاتنا أو نتغنى بما كنا عليه. فنحن مدعوون إلى اعتماد الحلول الناجعة التي من شأنها أن تجعلنا نتعامل مع التقانة الحديثة بإيجابية مطلقة وبوعي كامل لدورنا فيها. ولا تشكل الاقتراحات التي أوردت إلا القليل مما يمكن أن نعمل عليه. والسلام.